حِبر أبيَض
WHITE INK

اصطبغت به المذاهب الباطنية في الإسلام

فكر الفرس الديني منبع الفتن والنزاعات والاغتيالات على مر التاريخ

إن فهم البنية الســلوكية التي تعكس ظاهرة الاستعلاء العِرقي للفرس لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى الإرهاصات الأولى لتشكل المجتمع الفارسي. وهو المدخل الذي يعدُّ ضرورة إبستمولوجية

لرصد التراكمات التي جعلت من العِرق الفارســي من يتبنون السلوك العنصري والصدامي مع كل ما هو عربي، خاصة بعدما تمكنوا من ناصية القرار السياسي في إيران.

في هذا الســياق، يجب الانطلاق من مُسَــلِّمة أساســية مفادها أن عداء إيران للدول العربية والسُّنِّــيَّة غير مرتبط "في أصله" بالبعد الديني والعقدي، وإلا فكيف نفســر العداء الإيراني الشــديد لشــعب الأحواز وهم، في الأغلب، شــيعة إمامية جعفرية؟ كما لا يمكن تفســير عدائهم للمسلمين الأكراد، وهم سنة، بالارتكان إلى المعطى الطائفي.

يعــد مركز ثقل الإشــكالية إخضاع المنظومة العِرقية الفارســية للبحــث والتحليل العرقي والعقدي، كمقدمة لفهم طبيعة العداء المرضي للعرب باعتبارهم عِرقًا حاضنًا لرســالة الدين ولسانًا جامعًا لكلمة المسلمين، وهو ما يرى فيه الفرس احتكار غير مقبول لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، ولو ادعوا أنهم يستقون من صميم الدين ومن هدي الرسول الأمين.

التدقيــق التاريخــي يقطع بأن إيران هي التســمية القديمة للمنطقة، علــى اعتبار أن إطلاق تســمية بلاد فارس على إيران الحالية هو من قبيل إطلاق الاسم الخاص على الكل، ففارس ليست إلا الإقليم الجنوبي الغربي من إيران، وقد أطلق هذا الاسم على الأرض الإيرانية كلها.

من هذا المنطلق، تعود أصول الفرس إلى الشــعوب الهندو-آرية التي هاجرت من أواسط آسيا إلى هضبة إيران في الألفية الثانية قبل الميلاد، وقد كانت بلاد فارس جزءًا من الإمبراطورية الســومرية والأكادية، ويمكن حصر المجال الجغرافي المرجعي للفرس وســط إيران في الأهواز جنوب أصفهان، وهناك خضعوا لمجموعة من الإمبراطوريات والمماليك، قبل أن يتمكنوا من إقامة دول قوية تمثلت في الإمبراطورية الأخمينية، ثم الدولة الساسانية التي تعد بمنزلة الإمبراطورية الفارسية الثانية.

وعلى المستوى العقدي، انتشرت مجموعة من "الديانــات" في منطقة فــارس ولعل أهمها؛ الديانة الزرادشتية، والديانة المزدكية ثم اليارسانية والمندائيــة. ولقد عرفــت هذه الديانات انتشــارًا متباينًا باســثناء الزرادشــتية التي انتشرت بشكل واســع، بل ألهمت مجموعة من الفلاســفة وعلى رأســهم فريديريك نيتشــه الذي ألــف كتابًا مهمًّا بعنوان "هكذا تكلم زرادشت".

"اتجه الأغنياء والمرفهون إلى الديانة المزدكية لما فيها من إباحة لأعمال الفسق والفجور وتَنَكُّر للقيم الإنسانية"

وتأصيلًا لنشــأة فكرهم الديني، فإن تاريخ الفــرس امتــدّ لقرون قبــل الميلاد، مؤسســين حضارات قديمة، ما جعلهــم يُبالغون في التغني بتاريخهم وحضارتهم، متعصبين لجنســهم، ذلك الذي دعاهم إلى اعتبار ملكهم الأول (كيومرت) ابنًا لآدم لكونه أصلاً للبشــرية جمعاء، وفي طرح آخر يعتبرونه آدم نفسه عليه السلام.

بدأ الفكر الديني الفارســي بطقوس أوليَّة منذ فترةٍ مبكرة في الفكر الفارسي تعتقد بتقديس طبقة رجال الدين، ومن ثم رفعوا -بحسب الطبقية الفارسية- إلى المرتبة الأولى قبل رجال السياسة والحــرب والإدارة وعــوام الناس في المجتمع الفارســي. واعتمدت طبقة رجــال الدين الفرس على دُغماتيــة دينية جعلت من المجتمع بكل طبقاته تابعًا ومنقــادًا لها بعواطفه وتفاعلاته ومصالحه، وهذا ما يؤكد أن منابع الفكر الباطني والصوفي المُغالي من منطلقات ومنشــأ فارســي، كما يُثبت تاريخ هذه الأفكار ورجالاته.

والفرس بمختلف معتقداتهم القديمة والحديثة من وثنيتهم حتى إســلامهم أخذوا منهجًا واحــدًا معتمدًا على كونهم متفقين على تقديس رجال الدين والفكر الكهنوتي، باعتبارهم وســطاء بين الناس والتشــريع أيًّا تكن فلســفته ومنطلقاته. ولأهمية هذه الطبقــة الدينية ورجالاتها في

الفكر الفارســي؛ فإنها تفرعت وتشــعبت كما الأفكار الدينية المُشابهة التي تؤمن بالوصاية الدينية للبشــر، فكانت لديهم تفرعات في طبقة رجال الدين، تتفق بشــكلٍ أو بآخــر مع وجود حُكَّام، عُبَّاد، زُهَّاد، سَدنة، معلمين.

آمــن الفرس بخصوصيتهم في فكرهــم الديني، باعتباره ابتكارًا عرقيًّــا خاصًا بهم، حتى حين دخلوا الإســلام أضافوا عليه فكرهم القديم، حتى عُرفت طرائقهم بالباطنية التي تنسلخ دائمًا من نقاء الإسلام بأسرارها وقداساتها وأكاذيبها وخرافاتها.

ولفهم الارتباطــات العميقة في الفكر الدينــي للفرس؛ يجب أن نُلقي الضــوء على دياناتهم القديمــة، إذ تُعدُّ ديانــة (مزدا الحكيم) أقدمها، حيــن آمن قدماؤهم بأن مزدا إله القبائل المســتقرة والمتمدنة، معتبرين إياه إله العالم كله. واعتقد قُدماء الفُرس أن (مزدا) الإله الأعلى المُرســل للأنبياء والخالــق بكل تفاصيل الإله المُطلق، واعتبروا ملوكهم كيومرث وزرادشــت أنبياء له. وقالوا بأنه خلق ملائكةً حوله، أكثرهم قوةً (بهمن)، وهو الاســم الفارســي المتداول وقد تســمت بــه بعض العائلات الفارسية إلى يومنا الحالي.

ومن خلال مراحل الفكر الديني القديم للفرس؛ نجد أنهم عبدوا قوى الطبيعة، فكانت صلاتهم للشــمس والقمر والماء والنــار، والنار تحديدًا مثلــت قوةً لهم، حتى أنهــم لا يطفئونها في بيوتهم ويحرصون على ألا يخبوا لهيبها، واختصر هذا الفكر بالمجوسية وتفرعاتها.

وفي مراحل متأخرة من التاريخ الفارســي القديم؛ تأثروا باليهودية والنصرانية والبوذية، فمنذ حلول اليهود أرض الفرس بعد الســبي البابلي، وبعد ذلك بقرونٍ عدَّة؛ وجد الفرس أنفســهم ينهجون الســريَّة والتقيَّة تأثرًا باليهود، مقابل انتشار النصارى بينهم حتى ثار الناس على النصرانية في فارس سنة (339م).

ومن خلال تتبع منشــأ الفكر الديني الفارســي القديم؛ نلحظ أنه ارتكز على تقديس رجال الدين منذ القدم، وكانت ســيطرتهم على المجتمع الفارســي واضحة، كذلك كان لمبادئهم وأصول فكرهم سريَّة وتقيَّة اعتبروها أصلاً في فكرهم الديني.

واشــتهر عن الفكر الديني الفارسي كثرة إثارة الفتن والنزاعات والاغتيالات في سبيل تصفية خصومهم، علــى خلفية صراعاتهم الدينيــة الباطلة. وهذا ما يدعونا للربط بيــن ما حدث في بداية دخولهم الإســلام وباطنيتهم وأصول معتقدهم القديم، الذي انعكس على إسلامهم الملطخ بالفتن والدموية والخرافات.

الديانة الزرادشتية:

من رحم (مزدا) تفرعت الزرادشــتية، إذ يُعدُّ زرادشت عند الفرس نبيًا مُرسلاً من مزدا، وتتلخص فلسفة الزرادشــتية بين النور والظلمة التي تفسر الخير والشــر، ويؤمنون أنهما مبدأ وجود العالم، باعتبار أن كل شــيء خُلق وحدث بين هذين الضدين. وحسب الزرادشتية فإن مزدا يمثل الخالق والنور والخير، والشيطان يمثل الظُلمة والشر، ومن تفرعات فكرهم أن الماء مُقدس يمثل الخير، لذلك نجد الزرادشت يقدسونه بعدم غسل وجوههم بالماء، إذ يقتصرون على شربه وري مزروعاتهم.

وهذه الديانة قوامها مجموعة من الأســاطير تلك التي تحيط بشــخصية "زرادشت"، وهو ما يجعل الباحــث يركز على أهم المعتقدات التي رســخت لها الزرادشــتية بعيدًا عــن التأصيل لأصل المعتقد، الذي تناولته مجموعة من الباحثين بكثير من التفصيل.

وبين مزدا وزرادشــت تكمن الحكمة وفق الفكر الفارسي للربط بينهما، بينما أخذ زرادشت بُعدًا بشريًا في فكرهم، إذ يقولون إنه ولد في أذربيجان من أمٍ فارسية، ويعتقدون أن مزدا خلق روح زرادشت ووضعها في شجرة تَحُفُّها الملائكة المقربون، وغُرست في جبال أذربيجان.

وبربط بين ما هو موجود في الثقافة الفارسية القديمة والحديثة والمعاصرة؛ نجد أن أذربيجان تمثل للفرس منبعًا ومصنعًا لرجال الطبقة الدينية، إذ لا تزال إلى اليوم تســتورد بعض رجال طبقتها الدينية من الجنس الآذاري التركي، كما هو الحال مع المرشد الإيراني الحالي علي خامنئي.

ويعتــزّ الفرس بمعتقداتهم القديمة حتى بعد إســلامهم، الذي صبغوه بفكرهم القديم، لذلك تعد آثار زرادشــت في الثقافة الفارسية ككتاب (زند أوستا) أو ما يُســمى الأفستا مصدرًا مهمًا، يُقسم العالم إلى قســمين: مينة وكيتي، الروح والجسد، بما يُحاكي اللاهوت والناسوت في الثقافات الدينية الأخرى.

وبخصــوص "الكتاب" الذي جاء به هذا الدين الفارســي، فإن ويل ديورانــت يقول عنه: "هو في الحقيقة عبارة عن مجموعة من الكتب اســتوعبت ما جمعه تلاميذ زرادشت من أقوال وصلوات؛ وقد أســماها بعض أتباعه المتأخرين الأفستا. واشتبه الأمر على بعض العلماء المحققين فسموها خطأ بالـ "زندافستا" وأصبحت لذلك تعرف لدى الغربيين بهذه التسمية الخاطئة".

آمن زرادشــت بــأن الإله واحد وأطلق عليه لقــب "الإله الحكيم"، واعتبر النــار والماء والأرض والهــواء عناصر نقيــة وأن النار تمثل نور الله أو حكمته. ويصلي الزرادشــتيون عــدة مرات في اليوم ويمارسون العبادة الجماعية في معبد النار...وخلافًا للمسيحية، يحرُم الصيام والتبتل عندهم إلا جزء يسير من طقوس التطهير.

الديانة المانوية:

المانوية منســوبة لماني المولود سنة (215م)، ظهر في زمن ســابور أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن ســابور سنة (279م)؛ لأنه تعارض بزهده مع سياسة بهرام التوسعية المحاربة. (ماني) لم يكن كمزدا الأســطوري ولا زرادشت الآذاري، فـ (ماني) فارسي الأم والأب من العائلة الأشكانية الملكية، والده فاتك الحكيم. وقد أدخل ماني فكرة تناســخ الأرواح في الفكر الديني الفارســي مســتفيدًا من البوذية والثقافة الهندية.

تناغم ماني مع زرادشت في فلسفة النور والظلمة، كما استفاد من عقيدة التثليث النصرانية، إذ قال: الإله مكوَّن من ثلاثة: العظيم الأول، الرجل القديم، أم الحياة. لذلك آمن ماني بزرادشــت ونبوءة عيسى بن مريم عليه السلام، ويعد ماني نفسه آخر الأنبياء المُبلغين عن الله.

أسَّــس ماني مرحلةً جديدة في الفكر الديني الفارســي، حين جاء بكتابٍ ادعى قداســته اسمه (البستاه)، لذلك رأى الفرس أنه وأتباعه زنادقة، لأن ماني جعل للبستاه تفسيرًا مناقضًا له باسم (الزند)، وفســر الزند بـ (البازند)، لذلك جاءت كلمة زنديق في الثقافة الفارســية لأتباع الزند لتناقضهم الشديد وشذوذهم العقلي والفكري.

اصطدمت المانوية بالزرادشــتية، وذلك جعل الســلطة الفارســية تضطهد المانويين الذين اعتبروا نبيهم المزعوم ماني شهيدًا حين قُتل على يد بهرام، لذلك استمرت المانوية بدعوتها سرًّا، هربًا من الملاحقة والاضطهاد الزرادشتي.

الديانة المزدكية:

ســنة (487م) ظهر مزدك بن بامداد، وأطلق على فكره المزدكيــة، وكان يدعو للإباحية والفكر المُشاع الذي يتقاطع مع الشــيوعية بمعانيها الأوليَّة، ذلك ما أحدث أزمةً بتطبيق تعاليمه، إذ لم يكن الرجل يعرف ولده ولا الابن والده، ولم يستطع الناس امتلاك ما في أيديهم.

تحولت المزدكية من كونها فكرًا دينيًا لدى الفرس إلى فكرٍ اجتماعي، أسَّــس للقوانين الثورية المدمرة للمجتمعات، وكاد التنظيم الاجتماعي الفارســي ينهار لولا تســلم الســلطة كســرى الأول أنوشــروان بن قباذ الــذي رد أملاك الناس. ولكن لا زالــت بعض مبادئ المزدكيــة تطبق بأطر دينية متطورة لدى الفرس.

لجأ المزدكيُّون إلى الســرية في معتقدهم، وقد قَلَّ دورهم، خاصةً في عصر الدولة الساسانية، ولم تعد وتنشــط من جديد إلا بعد الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس، حين ثار المزدكيون وسعوا إلى الفتنة بين الناس وتطاولوا على الأحرار.

وتعـد المزدكية من بين الديانات الفارسـية الإباحية القديمة التي انتشـرت على نطاق ضيـق، خاصة بين الشـباب والأغنيـاء والمترفيـن، وترتكز على إشـاعة الفاحشـة والإباحية والتنكر للقيم الإنسـانية. والمزدكية هي أقرب إلى بدعة سـلوكية منها إلـى "ديانة" بالمفهوم اللاهوتـي، حيث تقـوم على التحريـض والفوضوية وتقديـس الغريزة الجنسـية والدفاع عن الاشتراكية في الأموال والنساء والأعراض.

وكعادة الثقافة الفارسية في الخلط بين الديانات فإن المزدكية خلطت مع الزرادشتية وكونت تقاطعًا بين الفكرين والديانتين، لولا أن المزدكية كانت أكثر إباحيةً.

الديانة اليارسانية:

تعد الديانة اليارسانية من الديانات المنشرة بين أكراد غرب إيران وشمال شرق العراق، وظهرت هذه الديانة الباطنية في القرن 12م على يد السـلطان إسحاق البرزنجي الملقب ب "فخر العاشقين"، ويربطهـا البعض بالديانة اليزدانية القديمة ويجعلها فرع لهذه الأخيرة، ويبدو أن التقية التي تميز بها اتباع "الطريقة" صعبت مـن مهمة إحصائهم وتمييزهم رغم التقاطعات مع المذهب الشـيعي في تقديس علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكذا الامتداد الصوفي لليارسانيين.

الديانة المندائية:

يَعُدُّها أتباعها من أقـدم الديانات ويطلق عليهم الصابئة المندائيـون، ويدَّعي هؤلاء اتباعهم أنبياء الله آدم وشيت وإدريس ونوح وسام بن نوح ويحيى بن زكريا.

ورغم أن الدسـتور الإيراني لا يعترف بهذه الديانة إلا أن أتباعها منتشـرون في الأحواز (غرب إيران) على الحدود العراقية في مدينة أهواز بالمحاذاة مع نهر "كارون"، وحسـب بعض المراجع فإن عدد الصابئة المندائيين يناهز 25 ألف شخص يطالبون بالحق في الاعتراف الدستوري، وهو ما وعدت به السـلطات الإيرانية من خلال العمل على إلحاق فقرة في الدسـتور تدرج ديانتهم ضمن الديانات المعترف بها.

المراجع:

1) حسـن الجاف، موسـوعة تاريخ إيـران السياسـي (بيروت: الـدار العربية للموسوعات، 2008).

2) خالـد القط، "التأويـل الباطني وأثره في عقائد المذاهـب الباطنية"، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة الثانية، ع. 4 (1435هـ).

3) خزعل الماجدي، علم الأديان (الرباط: مؤمنون بلا حدود، 2016).

4) شاهين مكاريوس، تاريخ إيران (القاهرة: مطبعة المقتطف، 1998).

5) ميرسـيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة: عبدالهادي عباس (دمشق: دار دمشق، 1987).

6) ويـل ديورانت، تاريخ الحضـارة، ترجمة: إبراهيم الشـواربي (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1947).